بسم الله الرحمن الرحيم

ومضات من حياة الإمام البخاري

وإضاءات حول كتابه الصحيح

د. عمر بن موفق النشوقاتي

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فنفتتح في هذا اليوم المبارك بعون الله تعالى رواية صحيح الإمام البخاري «الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه»، هذا الكتاب العظيم الذي هو أصح الكتب بعد كتاب الله عز وجل، وأجلّ ما أخرجته أيدي الأئمة الأعلام في تاريخ الإسلام، وتأتي قراءة هذا الكتاب ضمن خطة دار الحديث الشريف والسيرة النبوية في مجمع الشيخ أحمد كفتارو لرواية الكتب الستة وغيرها من كتب الحديث الشريف بعون الله سبحانه وتعالى.

وكما هي سنة مجالس الحديث عند المحدثين أن تفتتح برواية حديث الرحمة المسلسل بالأولية، فبالأسانيد إلى سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء».

ونبدأ بلمحات سريعة من سيرة الإمام البخاري رضي الله عنه، ومن المعلوم أن التوسع في ذلك لا تكفيه محاضرة ولا محاضرات، فلنقتصر على نتف من أخباره الدالة على سعة حفظه وشدة تحريه وإتقانه.

فهو الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه (لفظة بخارية ومعناها الزارع) البخاري الجعفي. أسلم جده المغيرة على يد اليمان الجعفي فنسب إليه بموالاة الإسلام.

ووالده إسماعيل بن إبراهيم طلب العلم، وسمع الحديث من الإمام مالك بن أنس ولقي عبد الله بن المبارك وغيره من الأئمة، وكان شديد الورع، حريصاً كل الحرص على أكل الحلال

حتى نقل عنه أنه قال عند موته: (لا أعلم من مالي درهماً من حرام، ولا درهماً من شبهة). وهذا ولا شك مما يدل على الأثر العظيم للجو الأسري في نشأة الإمام البخاري وتربيته التربية الصالحة.

وأهم من ذلك كله العناية الإلهية التي تدل عليها سيرته وعلمه الذي نفع الله به، وأيضاً تدل على ذلك بعض المبشرات الصالحة التي أكرمه الله بها، فمن ذلك ما حكاه النجم بن الفضيل قال: رأيت النبيَّ ﷺ في النوم، كأنه يمشي ومحمد بن إسماعيل يمشي خلفه، فكلما رفع النبي ﷺ قدمه، وضع محمد بن إسماعيل قدمه في المكان الذي رفع النبي ﷺ قدمه.

نشأ الإمام البخاري محباً للحديث وبدأ بحفظ الحديث وهو في الكُتّاب، ومما ينقل عنه في ذلك أنه قال: كنت أختلف إلى الفقهاء بمرو وأنا صبي، فإذا جئت أستحي أن أسلم عليهم، فقال لي مؤدب من أهلها: كم كتبت اليوم؟ فقلت: اثنين، وأردت بذلك حديثين، فضحك من حضر المجلس. فقال شيخ منهم: لا تضحكوا، فلعله يضحك منكم يوماً!!.

ويقول وراقه محمد بن أبي حاتم قال: قلت لأبي عبد الله: كيف كان بدء أمرك؟ قال: ألهمت حفظ الحديث وأنا في الكتاب. فقلت: كم كان سنك؟ فقال: عشر سنين، أو أقل، ثم خرجت من الكتاب بعد العشر، فجعلت أختلف إلى الداخلي وغيره، فقال يوماً فيما كان يقرأ للناس: سفيان عن أبي الزبير عن إبراهيم، فقلت له: إن أبا الزبير لم يرو عن إبراهيم. فانتهرني، فقلت له: ارجع إلى الأصل، فدخل فنظر فيه ثم خرج، فقال لي: كيف هو يا غلام؟ قلت: هو الزبير بن عدي عن إبراهيم، فأخذ القلم مني وأحكم كتابه وقال: صدقت. فقيل للبخاري: ابن كم كنت حين رددت عليه؟ قال: ابن إحدى عشرة سنة، فلما طعنتُ في ست عشرة سنة كنت قد حفظت كتب ابن المبارك ووكيع، وعرفتُ كلام هؤلاء.

ويقول سُليم بن مجاهد: كنت عند محمد بن سلام البيكندي ـ وهو أحد شيوخ البخاري ـ فقال: لو جئتَ قبلُ لرأيتَ صبياً يحفظ سبعين ألف حديث. قال: فخرجتُ في طلبه حتى لحقتُه، فقلت: أنت الذي يقول: إني أحفظ سبعين ألف حديث؟ قال: نعم، وأكثر، ولا أجيئك

بحديث من الصحابة والتابعين إلا عرَّفتُك مولدَ أكثرِهم ووفاتَهم ومساكنَهم، ولستُ أروي حديثاً من حديث الصحابة أو التابعين إلا ولي من ذلك أصلٌ أحفظه حفظاً عن كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

فإذا كانت هذه همتَه في الصغر فلا عجب أن نجد طلبة الحديث يحرصون على السماع منه وهو لا زال في مقتبل العمر، فقد حدث وسمع منه الطلبة وهو ابن سبع عشرة سنة لم تخرج لحيته بعد.

وأما شيوخه ورحلاته في طلب العلم والحديث فلا مجال هنا لسرد أسماء شيوخه، لكن كان يقول: لقيت أكثر من ألف رجل من أهل الحجاز والعراق والشام ومصر، لقيتهم كرات، وأهل الشام ومصر والجزيرة مرتين، وأهل البصرة أربع مرات، وبالحجاز ستة أعوام، ولا أحصي كم دخلت الكوفة وبغداد مع محدثي خراسان.

ويقول وراقه محمد بن أبي حاتم: سمعته يقول: دخلت بلخ، فسألوني أن أملي عليهم لكل من كتبت عنه حديثاً، فأمليت ألف حديث لألف رجل ممن كتبتُ عنهم. قال: وسمعته قبل موته بشهر يقول: كتبت عن ألف وثمانين رجلاً، ليس فيهم إلا صاحب حديث.

ولكن الذي يميز الإمام البخاري في أخذه عن الشيوخ هو حرصه الشديد على التحمل عن الشيوخ مع تحريه في ذلك غاية التحري، يقول زميله في الطلب الإمام الدارمي: لم يكن يشبه طلبُ محمدٍ للحديث طلبَنا، كان إذا نظر في حديث رجل أنزفه.

ويقول شيخه إسماعيل بن أبي أويس يقول: ما أخذ عني أحدٌ ما أخذ عني محمد، نظر إلى كتبي فرآها دارسة، فقال لي: أتأذن لي أن أجدِّدَها؟ فقلت: نعم، فاستخرج عامة حديثي بهذه العلة. والمعنى أنه استأذن الشيخ في أن ينسخ له نسخة جديدة من كتبه، فاستطاع بذلك أن يأخذ حديثه من أصوله لا من حفظه، وهكذا كان يفعل فيمن لم يثق بحفظه، فلا يأخذ عنه إلا من كتبه التي سمعها على شيوخه، يقول البخاري: لم تكن كتابتي للحديث كما كتب هؤلاء؛ كنت إذا

كتبت عن رجل سألته عن اسمه وكنيته ونسبته وحمله الحديث إن كان الرجل فهماً، فإن لم يكن، سألته أن يخرج إلي أصله ونسخته، فأما الآخرون فلا يبالون ما يكتبون وكيف يكتبون.

وأما همة الإمام البخاري في الاشتغال بالحديث فهي عجب من العجب، ومن شواهد ذلك ما قاله تلميذه وراوي صحيحه محمد بن يوسف الفربري: كنت مع محمد بن إسماعيل بمنزله ذات ليلة، فأحصيت عليه أنه قام وأسرج يستذكر أشياء يعلقها في ليلة ثمان عشرة مرة.

وقال الفربري: أملى البخاري يوماً عليَّ حديثاً كثيراً، فخاف مَلالي، فقال: طب نفساً، فإن أهل الملاهي في ملاهيهم، وأهل الصناعات في صناعاتهم، والتجار في تجاراتهم، وأنت مع النبي ﷺ وأصحابه. فقلت: ليس شيء من هذا، يرحمك الله إلا وأنا أرى الحظ لنفسي فيه.

وأما سعة محفوظه في الحديث: فقد اشتهر عن البخاري قوله: أحفظ مائة ألف حديث صحيح، وأحفظ مائتي ألف حديث غير صحيح. وقد كان نابغة في الحفظ منذ صغره، يقول حاشد بن إسماعيل ـ من زملاء البخاري في الطلب ـ: كان أبو عبد الله البخاري يختلف معنا إلى مشايخ البصرة وهو غلام، فلا يكتب، حتى أتى على ذلك أيام، فكنا نقول له: إنك تختلف معنا ولا تكتب، فما تصنع؟ فقال لنا يوماً بعد ستة عشر يوماً: إنكما قد أكثرتما عليَّ وألححتما، فاعرضا علي ما كتبتما، فأخرجنا إليه ما كان عندنا، فقرأها كلها عن ظهر قلب، حتى جعلنا نُحكِمُ كتبنا من حفظه، ثم قال: أترون أني أختلف هدَراً وأضيِّعُ أيامي؟! فعرفنا أنه لا يتقدمه أحد.

ويقول أبو بكر الكلواذاني: ما رأيت مثل محمد بن إسماعيل، كان يأخذ الكتاب من العلماء، فيطلع عليه اطلاعة، فيحفظ عامة أطراف الأحاديث بمرة.

ويقول علي بن الحسين البيكندي: قدم علينا محمد بن إسماعيل، قال: فاجتمعنا عنده. فقال بعضنا: سمعت إسحاق بن راهويه يقول: كأني أنظر إلى سبعين ألف حديث من كتابي. فقال محمد بن إسماعيل: أو تعجب من هذا؟! لعل في هذا الزمان من ينظر إلى مئتي ألف حديث من كتابه. وإنما عنى به نفسه.

وقد يسأل سائل عن أسباب هذا الحفظ وكيفيته، والجواب أنه هبة من الله أولاً، والإخلاصُ والهمة ثانياً، وقد سُئل البخاري يوماً: هل من دواء يشربه الرجل فينتفع به للحفظ؟ فقال: لا أعلم شيئاً أنفعَ للحفظ من نهمةِ الرجل ومداومةِ النظر.

وأما عبادته وورعه، فقد كان كثير العبادة والصيام والقيام والتلاوة، وأخباره في ذلك كثيرة لا مجال لسردها، ولكن من أعظم خصال ورعه تجنبه الغيبة التي لا يكاد يسلم منها أحد، يقول البخاري: أرجو أن ألقى الله ولا يحاسبني أني اغتبت أحداً.

علَّـقَ الإمام الذهبي على هذا الخبر بقوله: صدق رحمه الله، ومن نظر في كلامه في الجرح والتعديل علم ورعه في الكلام في الناس، وإنصافه فيمن يضعفه، فإنه أكثر ما يقول: منكر الحديث، سكتوا عنه، فيه نظر، ونحو هذا. وقل أن يقول: فلان كذاب، أو كان يضع الحديث. حتى إنه قال: إذا قلت: فلان في حديثه نظر، فهو متهم واه. وهذا معنى قوله: لا يحاسبني الله أني اغتبت أحداً. وهذا هو والله غاية الورع.

وأما كتابه الصحيح فالكلام حوله طويل، ونوجزه في نقاط سريعة:

أولاً: سبب تأليفه ومدة تصنيفه: فالسببُ الرئيسُ لتصنيف الإمام البخاري لصحيحه هو حاجةُ طلبة الحديث إلى وجود كتاب يختصُّ بالصحيح، لأن غالب ما صُنِّفَ قبلَه يضمُّ الصحيحَ وغيرَه، لكن ذكرَ العلماءُ سببين مباشرين شدَّا من عزيمة البخاري للعمل على تصنيف صحيحه:

الأول: اقتراحُ بعضِ إخوانه في مجلس شيخِهم إسحاقَ ابن راهُويَة، كما روى الخطيب البغدادي عن الإمام البخاري قال: (كنت عند إسحاقَ بن راهُويَه، فقال لنا بعض أصحابنا: لو جمعتم كتاباً مختصراً في الصحيح لسنن النبيِّ ﷺ، فوقعَ ذلك في قلبي، فأخذتُ في جَمعِ هذا الكتاب).

والثاني: رؤيا صالحةٌ رآها البخاري، حيث قال: (رأيتُ النبيَّ ﷺ في المنام وكأني واقفٌ بين يديه وبيدي مِروحةٌ أذبُّ بها عنه، فسألت بعضَ المعبِّرينَ فقال: أنتَ تذُبُّ عنه الكذبَ، فهو الذي حملني على إخراج الصحيح).

وقد استغرقَ العملُ في تصنيف الصحيح سنواتٍ طويلةً، كما قال البخاري: (صنفت «كتاب الصحيح» في ستَّ عشرةَ سنةً، خرَّجتُه من ستمئة ألف حديث، وجعلتُه حجةً فيما بيني وبين الله تعالى). وقال أيضاً: (ما وضعت في كتابي الصحيح حديثاً إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين). والمراد أنه يغتسل ويصلي ركعتين في ابتداء كلِّ جلسة تصنيف، فكأنه مع بذله للجهد في دراسة الحديث وتصحيحه يستخير الله تعالى بهاتين الركعتين، فإذا سمعنا مثل هذه الأخبار ندرك سر النفع الكبير الذي كتبه الله تعالى لهذا الصحيح.

ثانياً: منهج البخاري في الصحيح من خلال عنوانه:

وقد لخصَ الإمام البخاري منهجَه في الصحيح من خلال عنوان الكتاب، وهو الاسم الكامل الذي سماه به: «الجامع المسنَد الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه»، وهو عنوان موجَزٌ جامعٌ، تدلُّ كلُّ كلمة منه على جانب من منهجه:

ـ **الجامع**: وهو الكتاب الشاملُ لكلِّ أبواب الدين من الإيمان والعقيدة، وأحكام العبادات والمعاملات، وتفسير القرآن، والزهد والرقائق والآداب، والسير والمغازي، والفضائل والمناقب، وغير ذلك من الأبواب، فيشيرُ البخاريُّ بهذه الكلمة أن كتابَه جامعٌ شامل، غيرُ مقتصر على جانب واحد من جوانب السنة النبوية، وفي هذا احترازٌ عن أنواع أخرى من التصانيف ككتب السنن التي يغلبُ عليها أحاديثُ الأحكام.

ـ **المسنَد**: وهو في عُرفِ المحدثين: الحديث الذي اتصلَ سندُه، وكان مرفوعاً إلى النبي ﷺ، فالبخاريُّ يشير بذلك إلى أن الأحاديثَ التي رواها متصلةٌ مرفوعةٌ، فلذلك لم يُدخل البخاريُّ في صُلبِ الصحيح شيئاً بدون إسناد، ولم يخرِّج فيه إلا المرفوع، لكنه إذا احتاج أن يشير إلى حديث ويحذفَ سنده اختصاراً، أو احتاج إلى ذكر بعض أقوال الصحابة، فلا يُدخلُ ذلك في صُلبِ الكتاب، بل يستشهدُ به في مقدمات الأبواب وعناوين الأبحاث المسماة بالتراجم؛ يذكرُ ذلك إتماماً للفائدة بلا إسناد، ليتمم فوائد الباب، ولتتضحَ بذلك المسألةُ في نظر القارئ، ثم إذا دخلَ في صلب الباب بعد العنوان لم يذكر إلا الأحاديثَ المسندةَ المرفوعةَ إلى رسول الله ﷺ.

ـ **الصحيح**: يصرِّحُ بذلك أن كلَّ ما ذكره من الأحاديث مستوفٍ لشروط الصحة، وهذا ما أجمع عليه من يعتدُّ به من الأمة، بل البخاري هو أصح الصحيح لما عُلم من شدة شروطه في التصحيح والانتقاء، وتفصيل ذلك يُعلم من كتب علوم الحديث.

ـ **المختصر**: يبينُ بذلك أنه لم يستوعب في كتابه كلَّ الأحاديث الصحيحة، وقد صرَّح بذلك بقوله: (ما أدخلتُ في كتاب الجامع إلا ما صحَّ، وتركتُ من الصحاح كي لا يطولَ الكتاب).

ـ **من أمور رسول الله ﷺ**: يشير بذلك إلى شمول كتابه لكلِّ النواحي المتعلقةِ برسول الله ﷺ من الحديث أو السيرة أو الشمائل والأخلاق النبوية وغير ذلك، ويشير بذلك أن الكتاب مقتصر على إخراج الأحاديث المرفوعة دون الموقوفة والمقطوعة.

ـ **وسننه**: مصطلحُ «السنن» له معنى خاصٌّ وهو أحاديث الأحكام، وله معنى أعمّ، وهو كلُّ ما جاء عن النبي ﷺ مما جرى العملُ عليه، وكتاب البخاري شاملٌ لهذين المعنيين، فلم يقتصر على أحاديث الأحكام، إلا أنه اعتنى بها عنايةً خاصة، وتظهر عنايته في استنباط الأحكام بشكل بارع في تراجم أبوابه التي تمثل فقهه واجتهاده، وقد كانت تراجمه هذه محطَّ عناية العلماء، وألَّفوا حولها الشروح والدراسات، واستنبطوا منها مذهبه الفقهي، وسيمرُّ معنا إن شاء الله تعالى العجبُ العجاب من ذلك.

ـ **وأيامه**: والأيام يراد بها المغازي، فقد اهتمَّ البخاري بهذا الجانب من السيرة؛ لأنه مصدرٌ تشريعي في أبواب الجهاد، وغيرِ ذلك من جوانب السياسة الشرعية.

فهذا خلاصةُ منهج البخاري في كتابه من خلال ما يدلُّ عليه عنوانُه.

ثالثاً: روايات صحيح البخاري وأسباب اختلاف بعض الألفاظ فيه:

سمع صحيحَ البخاري من مؤلفه الكثيرُ من رواة الحديث، ورواه عن البخاري عدد منهم، إلا أن الرواية الباقية التي وصلتنا هي رواية تلميذه محمد بن يوسف الفربري وفروعُها، فقد سمع الفَربري الصحيح على البخاري ثلاث مرات، وضبطه وحرره، وكان عنده أصل

البخاري، وعاش بعده دهراً طويلاً يحدث به حتى مات أقرانه، فرحل الناس إليه لسماعه منه، وكتب الله تعالى لروايته البقاء، وكل الروايات الموجودة بين أيدينا هي فروع لرواية الفربري.

فرواه عن الفربري عدد من الرواة كان لكل منهم نسخة من الصحيح، منهم ابن السكن والمستملي والحموي والكشميهني وأبو علي الكشاني وغيرهم، وروى عن كل واحد من هؤلاء عدد من الرواة، سنرسم لهم شجرة في مجلس لاحق إن شاء الله تعالى، إلا أن أشهر الروايات وأكثرها تداولاً في العالم الإسلامي روايتان:

الأولى: رواية أبي ذر الهروي، وهي المعروفة عند المغاربة، وعليها بنى الحافظ ابن حجر شرحه فتح الباري.

والثانية: رواية أبي الوقت السجزي المعروفة عند المشارقة، وسماعنا للكتاب من طريقها، ويتفرع عنها النسخة اليونينية ـ وسنعرف بها إن شاء الله تعالى ـ وعليها بنى الإمام القسطلاني شرحه إرشاد الساري.

وسنلاحظ في أثناء القراءة وجود اختلاف بين روايات هؤلاء الرواة، فما أسباب هذا الاختلاف؟

لا بد من التنبيه أولاً أنه لا تختلف نسخ وروايات صحيح البخاري في زيادة حديث ولا نقصان حديث، بخلاف اختلاف روايات الموطأ، فالإمام مالك ألف كتابه في زمان طويل، وزاد فيه ونقص، وفي كل مرة يحدث به على صورته الجديدة، ويحمله عنه رواة جدد، فأدى ذلك إلى اختلاف الروايات بزيادة أحاديث ونقصانها، وقد يصل الاختلاف في ذلك إلى عشرات الأحاديث.

أما صحيح البخاري، فالاختلاف بين نسخه ورواياته ليس في زيادة أحاديث ونقصانها، وإنما هو عبارة عن كلمات أو زيادة متابعة أو فائدة هنا وهناك، بالإضافة إلى مواضع حصل فيها تقديم وتأخير، وسنلاحظ هذه الاختلافات بين النسخ التي قد تكون عدة ألفاظ في الصفحة الواحدة، ويرجع هذا الاختلاف إلى أسباب متعددة:

السبب الأول: سمع الفربري الصحيح من الإمام البخاري مرتين أو ثلاث مرات، ولعله كتب عنه أكثر من نسخة، واطلع على نسخ زملائه ممن سمع معه الصحيح، فربما زاد البخاري أو نقص في أمور يسيرة، كالمتابعات مثلاً، أو ترجمة لأحاديث لم يكن عنون لها، أو ذكر في أثناء الرواية فوائد قيدت عنه وألحقت بالصحيح.

السبب الثاني: من أسباب اختلاف الألفاظ أيضاً طبيعة رسم الحروف العربية، فالكتابة القديمة لم يكونوا يلتزمون فيها بالنقط والشكل، فيمكن أن تُقرأ الكلمة على أكثر من وجه صحيح له معنى صحيح، وغالباً تكون هذه الوجوه مروية، وقليلاً ما تكون على سبيل التصحيف، فما كان من ذلك تصحيفاً نبه عليه الضابطون للصحيح والشراح.

من أمثلة ذلك: ولا تجسسوا، فإذا كتبت مهملة تقرأ بالوجهين: تجسسوا، وتحسسوا. والحديث روي بكلا اللفظين، بل رويت رواية أخرى تجمع اللفظين معاً. ومثل: متلفعات بمروطهن، ومتلففات بمروطهن. فرسم الكلمة إن لم تكن منقوطة يحتمل أن تقرأ على الوجهين.

السبب الثالث: الوجوه الإعرابية الجائزة في اللغة، فيختار كل من الرواة وجها يرجحه على غيره، مثال ذلك: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجَهدَُ، بالرفع على معنى: حتى بلغ مني الجَهدُ كلَّ مبلغ، وبالنصب على معنى: حتى بلغ مني جبريلُ الجَهدَ.

السبب الرابع: التصرف من الرواة عن الفربري في أمور يسوغ فيها التصرف، فبعض الرواة مثلاً يثبت الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في موضع، ويحذفه راوٍ آخر اكتفاء بالصلاة عليه نطقاً، وكذا الترضي عن الصحابة رضي الله عنهم، فيوجد خلاف بين النسخ في هذا في مواضع كثيرة.

وكذلك في موضوع استشهاد البخاري بالآيات القرآنية، فبعض الرواة يثبت الآية كاملة، وبعضهم يكتفي بذكر جزء منها ويقول: إلى قوله كذا، باعتبار أن الآيات محفوظة، وهذا ما كان يفعله أبو ذر الهروي في روايته.

رابعاً: التعريف بالنسخة اليونينية وفرعيها: الطبعة السلطانية، وطبعة بيت السنة:

تعد النسخة اليونينية من صحيح البخاري من أصح وأدق نسخ الصحيح، وصاحبها هو الإمام شرف الدين علي بن محمد اليونيني المتوفى سنة ٧٠١هـ، فقد استنسخ اليونيني نسخته من نسخة الحافظ عبد الغني المقدسي، وقابلها أكثر من عشر مرات على أصول عديدة، فقابلها على أصول رواة الصحيح المشهورين، كالحموي والمستملي والكشميهني والأصيلي وأبي ذر الهروي وأبي الوقت السجزي وابن عساكر والسمعاني وغير هؤلاء، ورمز لكل منهم برمز، وأثبت الفروق بين النسخ في الهوامش، وأسمع النسخة عدة مرات في سنين كثيرة، وهو في أثناء ذلك يزيدها ضبطاً وتصحيحاً، وشاركه في بعض هذه المجالس كبار العلماء، ولا سيما العلامة النحوي الإمام ابن مالك صاحب الألفية، وهو من شيوخ اليونيني، فكان كلما مر بهم مشكلة نحوية أو لغوية ضبطها لهم شيخه الإمام ابن مالك وبيَّنَ توجيهها النحوي، ويثبت اليونيني على النسخة كلام ابن مالك، وكان من ثمرة هذه القراءة أن جمع الإمام ابن مالك هذه الإشكالات النحوية في كتاب سماه: «شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح»، وهو مطبوع في مجلد، فكانت هذه النسخة النفيسة ثمرة جهود مجمع علمي، وهي سابقة تاريخية في علم تحقيق المخطوطات قبل ظهور هذا المصطلح بنحو سبعة قرون.

بقيت هذه النسخة اليونينية محط عناية العلماء، ونسخوا منها النسخ الكثيرة، ولا سيما العلامة النويري الذي نسخ منه ثماني نسخ مع المحافظة على ضبطها وفروقها، ووقعت نسخة من فروع اليونينية إلى الإمام القسطلاني، فاعتمدها في شرحه إرشاد الساري، ونقل منها فروق روايات صحيح البخاري.

وفي مطلع القرن الرابع عشر أمر السلطان عبد الحميد الثاني بطباعة النسخة اليونينية، فطبعت مع المحافظة على ضبطها وفروقها، وهو ما يعرف بالطبعة السلطانية، ثم أكرمنا الله عز وجل في هذا العصر بطباعتها مجدداً، فطبعت بتحقيق الأخ الشيخ عبد الرحيم يوسفان مع فريق من الباحثين، مع إشراف ومتابعة من شيخنا الجليل الشيخ محمد نعيم عرقسوسي، وطبعت هذه

الطبعة في بيت السنة في السعودية، وأشرف على مراجعتها وطبعها فضيلة الشيخ علي العمران، وكان لي بفضل الله طرفٌ من المشاركة في العمل، وهي النسخة التي سأعتمدها في القراءة إن شاء الله تعالى.

خامساً: عناية العلماء بصحيح البخاري شرحاً وتدريساً:

وهذا باب واسع جداً، فقد كتب الله تعالى لهذا الكتاب القبول بين العباد، واعتنى العلماء به العناية الفائقة، وشُرح بالعشرات من الشروح الكاملة من كبار حفاظ وفقهاء الأمة، أما الكتب التي أُلفت حول البخاري، من ترجمته، وبيان منهجه، وشرح تراجمه، ومختصراته، وتراجم رجاله، وشرح غريبه، واستخراج الفوائد منه، فمجموع هذه الكتب تبلغ المئات، ولا أكون مبالغاً إذا قلت إنها تجاوزت الألف كتاب، وقد جمع أحد العلماء المعاصرين ـ وهو فضيلة الشيخ عصام عرار ـ مجموعة كبيرة منها في كتاب سماه: «إتحاف القاري بمعرفة جهود وأعمال العلماء على صحيح البخاري». طبع منذ ثلاثين سنة، وظهر بعد طباعته من دفائن المخطوطات مما يزاد عليه الشيءُ الكثير.

وأكثر الشروح تداولاً شرح فتح الباري للحافظ ابن حجر العسقلَاني الذي تميز بصناعته الحديثية، وبفهمه لمقاصد البخاري وأسراره، ثم عمدة القاري للإمام بدر الدين العيني، الذي تميز بالنواحي الفقهية، ثم إرشاد الساري للقسطلّاني الذي تميز بضبط ألفاظ البخاري ورواياته.

وأما العناية بتدريس البخاري وروايته في المجالس، فهذا الباب أكثر من أن يعدَّ ويُحصى، فقد قرئ عشرات الآلاف من المرات من عصر البخاري إلى الآن من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، وبما أننا في دمشق فأكتفي بالإشارة إلى قراءته في المسجد الأموي تحت قبة النسر في العصر العثماني.

فقد قُررت في المسجد الأموي في أواسط القرن الحادي عشر الهجري وظيفةٌ خاصة لإقراء الصحيح كلَّ عام في الأشهر الثلاثة رجب وشعبان ورمضان، واستمرت هذه الوظيفة قريباً من ثلاثمئة سنة، يُعقد فيها مجلس البخاري كلَّ سنة، وتعاقب على المجلس نحوُ ثلاثين مدرساً من

كبار علماء الشام، يتوافد الطلبة إلى هذا المجلس، ويكون يوم ختامه أشبه بالعيد عند أهل دمشق، يحضره العلماء والحكام والكبار والصغار.

فهذا نموذج لإقراء البخاري في مدينة واحدة وفي عهد واحد، فما بالكم بإقراء البخاري على مدى العصور ومختلف البلدان.

سادساً: اعتقاد الأمة بصحيح البخاري:

أجمعت الأمة الإسلامية على صحة صحيح البخاري، وعلى جلالة مؤلفه ومكانته في القلوب، وزيادة على ذلك فقد كانوا يتبركون بقراءته، ويستشفون بمجالس روايته، ويقرؤونه عند النوازل لدفع البلاء.

والأصل الشرعي في هذا أن التوسل بالعمل الصالح يدفع الله به البلاء، فكيف إذا كان العمل قراءةَ أصح ما ورد من حديث النبي صلى الله عليه وسلم؟

وأذكر هنا بعض الأمثلة لذلك في دمشق، ففي سنة ٩٣٤هـ قرؤوا صحيح البخاري للاستسقاء كما ذكر المؤرخ ابن طولون، وفي سنة ١١٧٣هـ قرؤوا صحيح البخاري عند حصول زلزلة عظيمة لدفع البلاء، وفي سنة ١٢٥٨هـ أمر الشيخ سعيد الحلبي الدمشقي بقراءة البخاري والشفا على نية الشفا، وقد أكد هذا العلامة يوسف المغربي والد الشيخ بدر الدين الحسني في أبيات له في مدح صحيح البخاري قال فيها:

إن البخاريَّ معلومُ الإجابة في ... ما أمَّه المرء في إقرائه ونحا

فما توسلَ محزونٌ به ورجا ... إلا وأُبدل من أحزانه فرَحا

ولا تلاه لكشف الضُّر ذو حرجٍ ... إلا تباعد عنه الضُّر وانفَسَحا

وهذا إن دلَّ على شيء فإنما يدل على مكانة هذا الكتاب في قلوب الأمة على مرِّ العصور، ولكن لا بدَّ من التنبيه على أن الحديث النبوي لا يُقرأ للتبرك فقط كما كان يظن بعض الفضلاء، بل يُقرأ للعمل والاقتداء أولاً، والتبرك والاستشفاء يكون نتيجة القراءة والعمل والاقتداء.

سابعاً: نماذج مما قيل في البخاري وكتابه من المدائح الشعرية:

كُتبت في مدح الإمام البخاري وصحيحه الكثير من القصائد، فأحببت أن أذكر شيئاً منها في هذا الافتتاح، ولعل من أشهرها قصيدة أبي عامر الفضل بن إسماعيل الجرجاني الأديب، رواها عنه بسنده الحافظ ابن عساكر في تاريخه، يقول فيها:

صحيح البخاري لو أنصفوه * لما خُطَّ إلا بماء الذهب

هو الفرقُ بين الهدى والعمى * هو السَّدُّ بين الفتى والعَطَب

أسانيدُ مثل نجوم السماء * أمام متونٍ كمثل الشُّهُب

به قام ميزانُ دين النبي * ودان به العُجم بعد العرب

حجابٌ من النار لا شك فيه * يميِّز بين الرضا والغضب

وستر رقيق إلى المصطفى * ونور مبين لكشف الرِّيَب

فيا عالماً أجمع العالِمون * على فضل رتبته في الرتب

سبقتَ الأئمة فيما جمعتَ * وفزتَ على رغمهم بالقصب

نفيتَ السقيمَ من الناقلين * ومن كان متهماً بالكذب

وأثبتَّ من عدَّلَتْه الرواةُ * وصحَّت روايتُه في الكتب

وأبرزتَ في حسن ترتيبِه * وتبويبه عجباً للعَجَب

فأعطاك ربك ما تشتهية * وأجزل حظَّك فيما وهب

وخصَّك في غرفات الجنان * بخير يدوم ولا يُقتضَب

وقال الشيخ محمد بن عبد الحق العقيلي المالكي المكي معارضاً قصيدة الجرجاني:

صَحِيح البخارى لو أنصفوا ... لما خُطّ إلَّا بماء البصر

وما ذاك إلَّا لضبط الأُصول ... وعَدْلِ الرواة بنقل الخبر

وفيه عُلُومُ الورى جمةٌ ... تضمَّنَها قول خير البشر

وقد فاقَ فضلاً على غيره ... فأضحى إماماً لكتب الأثر

هو البحرُ علماً فإنْ خُضَّتَه ... ظَفرتَ بكنز الهدى والدُّرر

فلازمه درساً ولا تبتغى ... به غيره في المسَا والبُكَر

فقد قال قوم لهم خبرةٌ ... هو البُرْءُ مِن كلِّ أمرٍ خَطِر

لِدُنيا وأُخرى وفي كلِّ ما ... تُرَجّي وتَبغي به مِن وَطَر

لجامعِه رحمةٌ دائماً... كقطر السماء ورَمشِ النّظَر

وعَدِّ الرِّمال وماء البحار ... وعَدِّ الطُّيُور ونبتِ الشّجَر

إلى الحشر والنّشر والمـُلتقَى ... بدار البقاء وحُسنِ المـَقَر

وناظمُها يرتجي دعوةً ... مِن الصَّحبِ بالخير عند النّظر

وصلِّ إلهي على المصطفى ... ومَن نورُه فاقَ ضوءَ القَمَر

وآلٍ وصَحبٍ وأتباعِهم ... ومن جاء مِن بعدِهم في الأثر

وبعد: فهذه لمحات في سيرة الإمام البخاري ومكانة صحيحه، فلا يغرنكم طعن الطاعنين وإرجاف المرجفين، ومثل هؤلاء مع الإمام البخاري وصحيحه قولُ الشاعر:

كناطحٍ صخرةً يوماً ليوهِنَها ... فلم يَضِرْها وأوهَى قَرنَه الوَعِلُ

وسمعتُ سيدي الوالد العلامة المحدِّث الشيخ موفق النشوقاتي رحمه الله مراراً يضرب مثالاً رائعاً بديعاً في حرب هؤلاء على الإسلام، قال رحمه الله تعالى ما معناه: (مَثَلُ الإسلام كمثل نبعٍ عظيم، أراد بعضُ الناس أن يَسُدَّ هذا النبع، فأتى بصخرة عظيمة، وحاول المرةَ تلو المرة مستعيناً بالعُصبة أولي القوة، وهو يفشل ويرتدُّ على عقبيه، حتى تمكَّنَ بعد محاولاتٍ من سَدِّه، فإذا بالنبع بعد ثوانٍ معدوداتٍ يتفجر من حولِه من أماكنَ أخرى كثيرةٍ، وهكذا الإسلامُ كلما حاربوه زاد انتشارُه في كلِّ مكان).

وصحيح البخاري أعظم كتاب في الإسلام بعد القرآن، فينطبق هذا المثالُ على الذين يحاربونه ويشكِّكون فيه، فقد كانت حربُهم هذه مُحَفِّزاً للغَيارى على إظهار فضائل

هذا الكتاب وصاحبِه، وازدادت مجالسُ سماعه وقراءته بشكلٍ كبير في طول البلاد الإسلامية وعَرضها ولله الحمد:

وإذا أراد الله نَشْرَ فضيلة   طُويَتْ أتاح لها لسانَ حَقودِ

وأعظم رد عملي على شبهاتهم عقد هذه المجالس المباركة لقراءة الصحيح وإقرائه، فلنحرص على هذه المجالس، لنكون سبباً في نصرة دين الله وإتمام نوره: (يريدون ليطفؤوا نور الله بأفواههم، والله متم نوره ولو كره الكافرون).

ثامناً: سند الفقير في رواية صحيح البخاري:

فمن فضل الله تعالى عليَّ أني سمعت صحيح البخاري بتمامه مرات عدة، فقرأته أولاً بتمامه على الشيخ صبحي بن جاسم البدري السامرائي البغدادي ببيروت سنة ١٤٢٩هـ، ثم حضرت دورة البخاري في الكويت سنة ١٤٣١هـ وكانت قراءته على ثمانية من المشايخ بأسانيدهم المختلفة، وهم: الشيخ أحمد علي السورتي، والشيخ صبحي البدري السامرائي، والشيخ محمد بن قاسم الوشلي اليمني، والشيخ ثناء الله بن عيسى خان المدني، والشيخ محمد إسرائيل الندوي، والشيخ عبد الوكيل بن عبد الحق الهاشمي، والشيخ محمد بن عبد الله الشجاع آبادي، والدكتور وليد بن عبد الله المنيس، ثم قرأته وسمعته بتمامه على شيخ دار الحديث الأشرفية بدمشق الشيخ حسين صعبية في سنوات عدة، وكان ختمه في سنة ١٤٣٩هـ، ثم قرأته وسمعته بتمامه على شيخنا الدكتور محمد مطيع الحافظ في دورة طرابلس الشام سنة ١٤٣٩هـ.

وسمعت أطرافاً من الصحيح مع الإجازة بالباقي من كثير من مشايخنا الأجلاء، منهم سيدي الوالد الشيخ موفق النشوقاتي، قرأت عليه كتاب بدء الوحي وكتاب الإيمان، وسيدي العلامة محمد يونس الجونفوري، قرأت عليه كتاب بدء الوحي في منى في حج سنة ١٤٣٠هـ، وسيدي العلامة الدكتور نور الدين عتر، قرأت عليه كتاب العلم، وسيدي العلامة الشيخ محمد نعيم عرقسوسي حفظه الله تعالى، سمعت عليه كتاب بدء الوحي والإيمان والعلم وأبواباً أخرى

متفرقة، وشيخنا إقبال أحمد الأعظمي، قرأت عليه بدء الوحي في زيارته لدمشق، وغيرهم جزاهم الله عنا خير الجزاء.

والأسانيد إلى صحيح البخاري كثيرة، ولكني أقتصر على سند رواية أبي الوقت السجزي من الطريقين؛ الطريق الهندي، وهو متصل بالسماع الكامل ولله الحمد، والطريق الشامي، وهو متصل بالسماع المنجبر بالإجازات في بعض طبقات الإسناد.

أما الطريق الهندي المتصل بالسماع الكامل ولله الحمد: فأخبرنا به شيخنا العلامة ثناء الله بن عيسى خان المدني قراءة عليه وأنا أسمع لجميعه: أخبرنا العلامة عبد الله بن روشن دين الروبري قراءة عليه مرتين ونصف: أخبرنا عبد الجبار بن عبد الله الغزنوي: أخبرنا نذير حسين بن جواد علي الدهلوي: أخبرنا محمد إسحاق بن محمد أفضل الدهلوي: أخبرنا عبد العزيز بن أحمد الدهلوي: أخبرنا والدي ولي الله أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي قراءة عليه من أوله إلى كتاب الحج مع إتمام باقيه على تلاميذه: أخبرنا أبو الطاهر محمد بن إبراهيم الكوراني: أخبرنا حسن بن علي العجيمي: أخبرنا عيسى بن محمد الجعفري الثعالبي: أخبرنا سلطان بن أحمد المزاحي: أخبرنا أحمد بن خليل السبكي: أخبرنا نجم الدين محمد بن أحمد الغيطي: أخبرنا شيخ الإسلام زكريا بن محمد الأنصاري: أخبرنا إبراهيم بن صدقة الحنبلي: أخبرنا نجم الدين عبد الرحيم بن عبد الوهاب بن رزين الحموي: أخبرنا أحمد بن أبي طالب الحجار: أخبرنا الحسين بن المبارك الزبيدي: أخبرنا أبو الوقت عبد الأول بن عيسى السجزي: أخبرنا عبد الرحمن بن محمد الداودي البوشنجي: أخبرنا عبد الله بن أحمد بن حمويه السرخسي: أخبرنا محمد بن يوسف بن مطر الفربري: أخبرنا الإمام الحافظ الحجة أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ﷺ.

(ح) وأما السند الدمشقي المتصل بالسماع الجزئي، فأخبرنا شيخنا الجليل حسين بن حسن صعبية شيخ دار الحديث الأشرفية قراءة وسماعاً عليه لجميعه بدار الحديث الأشرفية: أخبرنا محمود بن قاسم بعيون الرنكوسي سماعاً عليه لغالبه وإجازة لباقيه: أخبرنا العلامة الشيخ محمد أبو الخير الميداني سماعاً عليه وإجازة.

(ح) وأخبرنا عالياً شيخنا المسنِد مؤرخ دمشق الدكتور محمد مطيع الحافظ قراءة وسماعاً عليه لجميعه: أخبرنا العلامة الشيخ محمد أبو الخير بن حسين الميداني الدمشقي قراءة عليه لأوله وسماعاً عليه لأطراف منه وإجازة لباقيه: أخبرنا سليم بن خليل المسوتي الدمشقي قراءة عليه لنصفه وإجازة لباقيه: أخبرنا أحمد مسلم بن عبد الرحمن الكزبري الدمشقي سماعاً لبعضه إن لم يكن كله وإجازة: أخبرنا والدي عبد الرحمن بن محمد الكزبري الصغير الدمشقي إجازة إن لم يكن سماعاً: أخبرنا والدي محمد بن عبد الرحمن الكزبري الدمشقي قراءة وسماعاً عليه لجميعه نحو ثلاث مرات: أخبرنا والدي عبد الرحمن بن محمد الكزبري الكبير الدمشقي سماعاً عليه لجميعه، وأحمد بن علي المنيني الدمشقي سماعاً لحصة منه وإجازة لباقيه، قالا: أخبرنا محمد أبو المواهب بن عبد الباقي الحنبلي إجازة إن لم يكن سماعاً للأول، وسماعاً لطرف منه وإجازة لباقيه للثاني، قال: أخبرنا والدي عبد الباقي بن عبد الباقي البعلي قراءة لبعضه وإجاز لباقيه: أخبرنا عامر بن شرف الدين الشبراوي المصري سماعاً لجملة منه وإجازة لباقيه: أخبرنا أبو النجا سالم بن محمد السنهوري سماعاً عليه لجميعه: أخبرنا محمد نجم الدين بن أحمد الغَيطي سماعاً عليه لجميعه: أخبرنا شيخ الإسلام زكريا بن محمد الأنصاري سماعاً عليه لجميعه بالإسناد السابق.

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

دمشق: دار الحديث الشريف والسيرة النبوية ٢٣/ ١٢/ ١٤٤٣هـ